﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾ [سبأ: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أثرٍ مِن آثارِ عـدمِ الإيـمـان بالآخرة

لمّا عَجَزَ الكُفّار في أمرِ السّاعةِ عن مُقارعة الحُجَّة بالحُجَّة، والبرهان بالبرهان؛ لجؤوا إلى أُسلوب العاجز، وهو السُّخرية والتَّسفيه والإثارة، فقال فريقٌ منهم لفريق آخر استهزاءً برسول اللّهِ ﷺ واستبعادًا لأَمر البَعث: هل ندلُّكم على رجل منكم يحدِّثكم بِأنَّكم إذا صرتم رفاتًا وتُرابًا، ومُزِّقت أجسادُكم كلَّ مُمَزَّق؛ تُبعثون، وتعودون خلقًا جديدًا سويًّا، وإمعانًا منهم في السُّخرية والاستهزاء؛ تجاهلوا اسمَ رسولِ الله ﷺ، وأتوا به نكرةً كأَنَّه ليس معروفًا لديهم شخصُهُ ووصفُهُ بالأمانة والصِّدق، فقالوا: أَهو مفترٍ وكاذبٌ فيما يدَّعيه على الله تَعالى أَم به جنونٌ يوهِمُه ذلك، ويلقيه على لسانه؟ فحكى سبحانه عن هؤلاءِ الكفّارِ أنَّهم قالوا: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾: (فري) أصلُ الكلمةِ مِنَ الفَرْي، وهو: القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئبُ بطنَ الشّاة، أي: شقَّه، ومنه الفِراءُ، وهو الجِلْدُ؛ لأنَّه يُقطَعُ، ويأتي الفَرْيُ بمعنى الصُّنعِ والاختلاقِ، وسُمّيَ الكذبُ فِرْيَةً وافتراءً؛ لأنَّ المفتَرِيَ يَقتطعُ الكلامَ اقتطاعًا من تِلقاءِ نَفْسِهِ[2]، والجَمْعُ: فِرًى، وفُسِّر الافتراءُ بِالكذبِ العظيمِ، وفُسِّرَ بأنَّهُ

(1) القنوجي، فتح البيان: 5/ 422، ولجنة من العُلماء، التَّفسير الوسيط، ص: 247.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).

الكذبُ المُتعلِّقُ بالأغراضِ، ويَرِدُ بمعنى البُهتانِ والظُّلمِ[1]، والمُرادُ بالافتراء في الآية: الاختلاقُ وإيجادُ خبرٍ لا مُخبِرَ له[2].

2) ﴿جِنَّةٌۢ﴾: (جنّ) تدلُّ تصريفاتُه على السَّتْرِ والتَّسَتُّرِ، فالجَنَّةُ: ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثَوابٌ مَستورٌ عنهم اليومَ[3]، والجِنُّ نوعٌ مِن العالم، سُمّوا بذلك لاجْتِنانِهم عَنِ الأَبْصار[4]، والجِنَّةُ: الجُنونُ، وسُمّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ، ويُغطّيه، وهوَ الخَلَلُ العَقْليُّ الذي يُصيبُ الإنسانَ[5]، وهو المُرادُ به هنا في الآيةِ.

3) ﴿وَٱلضَّلَٰلِ﴾: (ضلّ) تدلُّ اشتقاقاتُه على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّه[6]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُهُ[7]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريق، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا؛ إذا انحرفَ، وضاعَ، ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلَلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّهُ؛ إذا جعلتَه في مكان، ولم تَدْرِ أين هو، وأَضْلَلْتُه: أضَعْتُهُ[8]، وضِدُّه: الاهتداءُ والاستقامةُ والرَّشادُ.

والمقصودُ بالضَّلالِ في الآيةِ: خطأُ الطَّريق المَوَصِّل إلى المقصود[9].

4) ﴿ٱلْبَعِيدِ﴾: (بعد) تدور تصريفاتُهُ على ضدِّ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدَّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[10]، ويكونُ ذلكَ في المحسوسِ، وهو الأكثر، والمعقول نحو: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾، وبَعِدَ بالكسر يبعَد بالفتحِ، بمعنى: هلك، قال تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 95][11]، والبعيدُ في الآية معناه: صفةٌ لمكانِ الضَّلالِ، وهو الطَّريقُ الذي حادَ عن المكانِ المقصود[12].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 449، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(4) ابن سيده، المحكم: (جنن).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 89.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 151.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (بعد).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 151.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السُّخريةُ والسَّفهُ والإثارة أُسلوبُ العاجز

يُخبرُ اللهُ سبحانه عَمّا قاله الكفرةُ فيما بيْنَهم على سبيلِ الاستهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ في إخبارِه بالبعثِ واستِبعادِهم ذلك، فذكر أنَّهم قالوا: أَختلَق محمَّدٌ ذلك الأمرَ، فكَذَب على اللهِ في إخبارِه بأنَّه سيَبعثُنا بعدَ مَوتِنا؟ أم هو امرؤٌ مَجنونٌ يَهْذي بكَلامٍ لا معنى له؟ ثمَّ ردَّ اللهُ تعالى عليهم، فبيَّنَ أنَّ الأمرَ ليس كما زعموا، بل إنَّ محمَّدًا ﷺ هو البرُّ الرَّشيد الذي جاء بالحقِّ، وإنَّهم هم الكذبةُ الجهلةُ الأغبياء الذين بلغوا الغايةَ في اختلال العقلِ، وأوغلوا في الضَّلال، وبعدوا عنِ الإدراك والفَهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ جملةِ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ عمّا قبلَها:

كونُ الكلامِ تفصيلًا لِما سَبَقَ أو جاريًا مَجرى المُحاورة

قوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتملُ أن يكونَ من تمامِ قول الكفّارِ أوَّلًا الذين قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ [سبأ: 7]، فهو مِن جملةِ ما حُكي، ويجوزُ أن يكونَ من كلامِ السّامعِ المُجيب للقائل: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ [سبأ: 7]، كأنَّ السّامعَ لمّا قيل له: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ [سبأ: 7]، قال لَهُ: وهو يفتري على اللهِ كذبًا؟ - إن كان يعتقدُ خلافَهُ - أو به جِنَّة؟ - إن كان لا يعتقدُ خلافَهُ - وفُصِلَت الجملةُ على كلا الاحتمالين؛ لما بينهما من كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِ الجملتَين خبرًا وإنشاءً[2].

معنى الهمزةِ في جملة: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

إفادةُ التَّعجُّبِ المُفضي إلى التَّشكيك ومن ثَمَّ الإنكار

الهمزةُ في قولِه تَعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ همزة استفهام؛ إذ كان المشركون في حيرةٍ مِن أمرِهم أمام دعوة النَّبيِّ ﷺ، فجاء الاستفهامُ هنا على لسانِهم إمّا تعجُّبًا أو تشكيكًا في شأن النَّبيِّ ﷺ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 215، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 263، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 496، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 61.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194، وابن عادل، اللُّباب: 16/ 18.

ومِن ثَمَّ إنكار نبوَّته ورسالته، فإمّا أن يكونَ النَّبيُّ ﷺ - بزعمهم - قد افترى كذبًا، أو أنَّه قد أصابه جنونٌ[1]، وفي الحالين هم يقصِدون إلى نفي النُّبوَّة عنه.

وجاء الإخبارُ بطريق الاستفهام؛ ليصحَّ كونُهُ أحدَ الخيارين، ولتشريك المُخاطَبين معهم في ترديد الرَّجل بين هاتَين الحالين[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الافتراء)، ولطيفة صَوْغِهِ:

الافتراءُ مأخوذٌ مِنَ الفَري، وهو قَطْعُ الجلد قطعًا ليُصلِحَ بهِ، مثل أن يُحذَى النَّعل، ويُصنَعَ النِّطع أو القِربة، وافترى: افتعالٌ من فَرِيَ؛ لإفادة المُبالغةِ فيه، يُقال: افترى الجلدُ، كأنَّهُ اشتدَّ في تقطيعهِ أو قطعِهِ تقطيعَ إفساد، وهو أكثر إطلاقاتِ (افترى)، وأطلقت العربُ على الإخبار عن شيءٍ بأنَّه وقَعَ، ولم يقع اسمُ الافتراءِ بمعنى الكذبِ.

الافتراء تعمُّدُ الكذب، والافتعال فيه لإرادة المُبالغة

والافتراءُ أخصُّ مِنَ الكذب؛ إذ الكذب خبرٌ لا يُطابق الواقع سواء كان عَمدًا أو خَطأً، بخلاف الافتراء، فإنَّه ما كان منه عن عَمْدٍ، فمُقابلتُهُ بالجُنون لا تقتضي أنَّ كلامَ المجنونِ ليس من الكذب، بل إنَّه ليس مِنَ الافتراء؛ إذِ الافتراء هوَ الاختلاق وإيجاد خبر لا مُخبِر له[3].

والمشركون إذْ قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أرادوا بذلك أن يَطْعنوا في مصداقيَّة الرِّسالة، مُدَّعين أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس مُجرَّدَ كاذبٍ، بل هوَ شخصٌ يتعمَّد الافتراء على الله؛ لذلك كان اختيارُ لفظ الافتراء هُنا يدلُّ على سعيٍ حثيثٍ منهم؛ لتشكيكِ النّاس في نبوَّة النَّبي ﷺ وحقيقة الوحي، فالتَّعبيرُ بـ ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ بدل (أَكَذَبَ) يُضيف دلالة قويَّةً تشير إلى تَعَمُّدِ الكذب واختلاقه، خاصَّة عندما

سـوءُ نيَّـةِ المُشركين ومحاولتهم الطَّعن في الوحي والرِّسالة

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 319، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 263، والجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن، ص: 153.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 64، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151.

يتعلَّق الأمر بالافتراء على اللّه سبحانَهُ، مِمّا يُنبئُ عَن سوء نيَّة المُشركين في محاولتهم الطَّعنَ في الوحي والرِّسالة.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ ودلالة إضماره:

استصغارُ المشركين أمرَ النَّبيِّ ﷺ

الضَّميرُ المستترُ في ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، راجعٌ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ إذ المشركون زعموا أنَّهُ ﷺ - وحاشاه - كذب على اللّه هذا القول، وزوَّره عنه، وادَّعى أنَّه أخبرَهُ بوجود بعثٍ جديد للنّاس بعد موتِهم لحسابِهم وجزائهم، وذلك منهم استصغارٌ لأمرِهِ وتغافُلٌ عن شأنه، وقد كان بينهم قبل ذلك الصّادق الأمين، فزعموا أنَّ ما جاء بِهِ النَّبيُّ من وحيٍ وتعاليمَ وإخبار بالغيب هو من اختلاقه وافترائِهِ وليس من عند اللّه تعالى[1].

وآثرَ البيانُ القرآنيُّ اسْتِتارَ الضَّميرِ مع فعل الافتراءِ في حكاية كلام الكفّارِ مع تصريحِهِم هُم في كَلامِهِم به؛ حفظًا لمقامِ النُّبوَّة عن أن يُقرنَ اسمُهُ ﷺ بفعل الافتراءِ، ولو على جِهَةِ الحكايةِ.

نكتة التقييد بـ ﴿عَلَى﴾:

الدلالةُ على شدَّة الاتِّهام وخطورته، وبيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللهِ تعالى

قُيِّدَ فعلُ ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ بكونِهِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقتضي أنَّ الشَّخصَ لا يكتفي بالكذبِ على النّاس، بل يتجرَّأ على الكذبِ على اللّه تَعالى بادِّعاء أمورٍ تتعلَّق بالدّين والوحي، وهو أمرٌ أعظمُ في جرمِهِ وأشدُّ في خطورته، وفيه مع هذا بيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللّهِ تعالى، حتَّى إنَّ الكافِرينَ يَستَقبِحونَه[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعميقُ الشُّعورِ بخطورةِ الاتِّهام

جاء التَّعبيرُ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ لإرادةِ تعظيمِ شأن الخبرِ، فإنَّ الكفارَ لمّا اتَّهموا النَّبيَّ صلى اللّه عليه سلَّم بالافتراء على اللّه؛ لم يكُن قصدُهم مطلقَ الافتراءِ، بل قصدُهُم افتراءٌ على أعظم

(1) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5888، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 76.

عظيم في الوجود، مِمّا يزيد من شناعةِ الادِّعاء الذي يوجِّهُهُ الكفّار؛ إذْ لو كان الاتِّهام بمطلق الافتراءِ؛ لكان الأمرُ أقلَّ خطورةً، لكنَّ التُّهمة بالافتراء على الله يُصيِّرُ الادِّعاءَ أشنَعَ، فيكون تخصيصُ ذِكرِ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ هُنا معمِّقًا الشُّعورَ بخطورة الاتِّهام[1].

دلالةُ تقييدِ الافتراءِ بـ ﴿كَذِبًا﴾:

التَّشديدُ على شناعةِ هذا الافتراء وكونهِ في غاية البطلانِ

جاءت لفظةُ ﴿كَذِبًا﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لتوضِّح نوعَ الافتراء الذي ادَّعاه المُشركون؛ إذ المعنى على زعمهم: أفترَى عن عمدٍ؟ ونسبَهُ إلى اللهِ كَذِبًا تغريرًا وتلبيسًا على ضعفاء الأنام؛ ليقبلوا منه أمثالَ هذه الأباطيل، ويعتقدوهُ رسولًا مُخبرًا عن المغيَّبات وعجائب الأمور وغرائبها؟[2] فالاتِّهام بالافتراء في ذاتهِ يُشير إلى الادِّعاء الباطل، ولكنَّ تقييدَهُ بـ ﴿كَذِبًا﴾ زيادةٌ في تشنيعِ هذا الافتراء وعلى كونه باطلًا تمام البطلانِ.

وفي تقييد الافتراءِ بالكذب إيضاحٌ لنوعِ الافتراءِ، وجعْلُهُ أكثرَ استنكارًا؛ إذ دونَ ذِكرِ لفظ ﴿كَذِبًا﴾، قد يُفهَم الافتراءُ بمعنى الادِّعاء أو القول دون تحقُّقٍ، لكنَّ التَّقييدَ بـ ﴿كَذِبًا﴾ يدفع أيَّ احتمالٍ آخرَ، ويعيِّنُ الافتراءَ لمعنى الباطلِ والكذبِ الصَّريح[3].

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿كَذِبًا﴾:

تعظيمُ الكذبِ وتفخيم شأنه

نُكِّرَ لفظُ ﴿كَذِبًا﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ إشارةً إلى تعظيم هذا الجُرم، وأنَّه ليس ككُلِّ كذبٍ، بل هو مِن أعظمِ أنواع الكذب وأفحشِها، كما أنَّ تنكيرَ لفظ ﴿كَذِبًا﴾ يدلُّ على الإطلاقِ، فيكون هذا الكذب المُتَّهم به ليس كَذِبًا مخصوصًا، بل يصدُقُ على أيِّ نوعٍ من الافتراءِ أو الكذبِ المحتمَل، مِمّا يوحي بشموليَّة الاتِّهام وجَسامَتِه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.
(2) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 169.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 57.

معنى ﴿أَم﴾ في قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾:

﴿أَم﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ مُتَّصلةٌ، وهي تومئُ إلى تردُّد الكفّار واضطرابهم في تحديد موقفٍ واضح من النَّبيِّ ﷺ، فهم يتأرجَحون بين احتمالين متناقضين: الكذبِ العمد أو الجنون، غير جازمين بأحدهما، مِمّا يكشف عن ضعف حُجَّتهم وتخبُّطهم في محاولة تشويهِ دعوتهِ ﷺ، وهذا التَّردُّد يجعل اتِّهاماتِهم غيرَ مُقنعةٍ، ولا مُجديةٍ[1].

إبرازُ التَّردُّدِ والاضطراب في موقف الكفّار

وفي قولِ اللّه تَعالى حكايةً لقولهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ أنَّهم يزعمون أنَّ هذا القولَ العجيب الغريب المستنكر لا يقوله إلّا أحدُ اثنين، من يفتري على اللّه كذبًا، ومَن به جنونٌ، فإمّا أن يكون محمَّدٌ ﷺ سويَّ الفِكرِ إلّا أنَّه - وحاشاهُ - يكذب على اللّه كذبًا على وجه الافتراء، يَخْتَلِقُه اختلاقًا من عنده، وإمّا أن يكون قد أصابَهُ الجنونُ، فهو يقولُ أقوالًا لا تَقْبَلُها العقولُ، ولم يُخبروا بما يتحقَّقونَهُ في شأن البعثِ، فاقتصرت مقالتُهم على ترديد ما تقدَّم دفعُهُ بالبرهان العقليِّ[2]، فتأتي (أم) للإيماءِ إلى أنَّ الكفّارِ يسوقون افتراضاتٍ واتِّهاماتٍ عبثيَّةً، قاصدين إلى تكذيب أمرِ البعث بالطَّعن في المُخبرِ بهِ، وهذا تضمَّنَ توبيخَهم على سوء تقديرِهم وفساد منطقِهم، وتعريضًا بسفاهة عقولهم، وهذا يستلزِمُ تحريكَ ذهنِ المُتلقّي ودفعَهُ إلى رفض الاتِّهامات بعد إدراك تَهافُتِها.

توبيخُ الكفّار والتَّعريض بِهم على سوء تقديرِهم

معنى (الباء) في المتعلَّق ﴿بِهِۦ﴾:

الجِنَّةُ في قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ بمعنى: الجنونِ، والباء في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاقِ الحقيقيِّ[3]، فالجنونُ في زعمهم مُلاصقٌ وملابسٌ له، كأنَّهم يقولون: هل الجنونُ قد تلبَّس به تلبُّسًا شديدًا حتّى صارَ من

بيانُ كونِ الجنونِ - في زعمهم - مُلاصقًا وملابسًا له

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 375.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 192.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 455.

صفاتِه الملازمَةِ؟ فهذه الباءُ تعكس أنَّ الجنونَ شيءٌ قد سَيطرَ عليه - بحسب ادِّعائهم - فيجعلُهُ غير قادرٍ على التَّصرُّف كالعقلاءِ، وهذا في غاية التَّضليل مِنْهُم لِلنّاس مِمّا يخدمُ غرض تشويهِ صورةِ النَّبيِّ ﷺ بوجهٍ مؤكَّد عند المَتلقّين.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٌۢ﴾:

المبالغةُ في اتِّهامهم النَّبيَّ ﷺ

تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٌۢ﴾ يلفت الانتباه إلى ذاتِ النَّبيِّ ﷺ، فهو مِحْوَر تُهمتهم الَّتي يدور الحديثُ عنها، والهدف هو جعْلُ ذهنِ المُتلقّي يُركِّز أوَّلًا في الموصوف الذي يُعاني من هذه الحالِ، قبل ذِكْرِ صفة الجنون.

وفي التَّقديم أيضًا معنى الحصرِ والقصرِ، كأنَّهُ ﷺ - وحاشاه - هو المخصوص بوصف الجنون دون غيرِهِ؛ لشدَّة الجنون المُدّعى له، حتّى كأنَّ جنونَ غيرِهِ لا يُعدُّ جنونًا، وقصدُهُم من هذا الاتِّهام الجائرِ هو إبطالُ رسالته وإثارة السُّخرية حوله.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تضخيمُ الاتِّهام وتثبيتُهُ في نفوسِ المتلقّين

﴿جِنَّةٌۢ﴾ في الآية بمعنى: الجنونِ والخبلِ وذهابِ العقل، وذلك الذي جعل النَّبيَّ ﷺ بزعمهم - وحاشاه - يَتَكَلَّمُ بِما لا يدري، ولا يعقلُ ما يقول، ويتوهَّم البعثَ، ويتخيَّله[1]، وكأنَّ العقلَ السَّويَّ قد احتجب عَنه.

ولفظُ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ على وزن (فِعْلَة)، وهو من مصادر الهيئةِ، يصاغ للدَّلالةِ على الهيئة بوصفٍ أو إضافةٍ[2]، كجَلَس جِلْسَةَ أبيه، وفي الحديث: «إذا قتلتُم؛ فأحسِنوا القِتْلَة»[3]، وهذا الوزنُ في الآية الكريمة يُشير إلى هيئة الجِنَّةِ أو حالها التي تصيب الإنسان مدَّةً

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 263، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 561، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 22/ 4373.

(2) ابن قاسم، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: 2/ 868، وعلى الجارم ومصطفى أمين، النَّحو الواضح: 2/ 251.

(3) الحديث رواه مسلم من حديث شداد ابن أوس ﷺ: ينظر: مسلم، صحيح مسلم، برقم (1955).

معيَّنة، وهذا يُعزِّز تصوُّر أنَّ هذا الجنونَ صار جُزءًا من ذاتهِ بعد أن كان عندَهم من أعقلِ النّاس وأصدقِهم ممّا يزيدُ من تضخيم هذه التُّهمة وتثبيتها في الأذهان.

تصويرُ التُّهمةِ بأنَّها حالٌ من غياب العقلِ تحت تأثيرِ غامضٍ

وفي اختيار لفظِ ﴿جِنَّةٌ﴾ إيماءٌ بأنَّ الحالَ ليست غيابَ عقلٍ فحسبُ، بل اضطرابٌ ناتج عن قوًى غيبيَّةٍ غامضة، وهُمُ الجنُّ[1].

فالصِّلةُ بين المادَّة اللُّغويَّة (الجيم والنّون)، والمعنى البلاغيِّ في الآية تقوم على تصوير التُّهمةِ بأنَّها حالٌ من غياب العقل واستتاره تحت تأثيرٍ غامضٍ وخفيٍّ، يتماشى مع تصوُّرات الكفّار عن الجنون والجنِّ، كما يدلُّ هذا التَّعبيرُ عَلى جهلهم وغيِّهم في إدراك الحقيقة النَّبويَّة.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿جِنَّةٌ﴾:

تهويلُ شأن الجُنونِ إمعان في التَّلبيسِ

جاءَ لفظُ ﴿جِنَّةٌ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ منكَّرًا، لإبهام هذا الجنون، والإبهام في نوع الجنونِ يجعل التُّهمة أكثرَ تأثيرًا؛ لأنَّها تجعلُ ذهنَ السّامعِ يذهب كلَّ مذهبٍ، أهو فقدانٌ كامل للعقل؟ أم اضطرابٌ عارضٌ؟ وهذا الضَّربُ مِنَ الكلام - وهوَ الإبهام - يستعملهُ القائل لقصد التَّشويش، حيث يُلقي الشَّكَّ من غير إيرادِ حُجَجٍ على مقالتِه، ممّا يوقِعُ السّامع في الإرباكِ، ويدفعه إلى التَّفكير في أسوأ الاحتمالات، وهذا يُفضي إلى تهويل الأمرِ وتضخيمه في نفسه.

فكان تنكيرُ لفظِ ﴿جِنَّةٌ﴾ دالًّا على أنَّ هذا الجنونَ أمرٌ غريب مُبهَمٌ ومخيفٌ عظيمٌ، كلُّ هذا منهم للإمعان في التَّلبيسِ والمغالطَةِ.

دلالةُ الاحترازِ بين الافتراءِ والجنونِ:

الكافرُ لا يرضى أن يَظْهَرَ كذِبُهُ وعجزُه

في ترديدِ المُشركين حالَهُ ﷺ بين الافتراء والجنون إشارةٌ إلى أنَّ الكافر لا يرضى بأن يظهرَ كذبُهُ، ولهذا قَسَّم، ولم يَجزم بأنَّه مفترٍ،

(1) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306، والفرماوي: السَّهل المُفيد، ص: 41.

بل ردَّد الأمر بين حالين: الافتراء أو الجنون؛ احترازًا مِن أن يقولَ قائلٌ: كيف يقول بأنَّه مفترٍ؟ مع أنَّه جازَ أن يظنَّ أنَّ الحقَّ ذلك، وظنُّ الصِّدق يمنع تسميةَ القائلِ مُفتريًا وكاذبًا في بعض المواضع، وذلك كمَن يقول: جاء زيدٌ، فإذا تبيَّن أنَّه لم يجئ، وقيل له: لِمَ كذبت؟ يقول: ما كذبتُ، وإنَّما سمعتُ مِن فلانٍ، فظننتُ أنَّه صادق، فيدفع الكذبَ عن نفسهِ بالظَّنِّ، وكذلك هؤلاء الكفّار احترزوا عن تبيين كذبهم، فكلُّ عاقلٍ ينبغي أن يحترِزَ عن ظُهورِ كذبِهِ عند النّاس، ولا يكون العاقلُ أَدْنى درجةً مِنَ الكافر[1].

بيانُ تخبُّطِ المشركينَ في فهْمِ الرِّسالة النَّبويَّة

ومع الاحترازِ المتقدِّم مِن الكفار بترديدِهم حالَ النَّبيِّ ﷺ بين الافتراءِ والكذبِ، فإنَّ جُملة ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ و﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جُملتان تدلّانِ على تناقضٍ كبيرٍ مِنْ هؤلاء الكفّارِ؛ وذلك أنَّ الافتراءَ يقتضي عقلًا واعيًا وكذبًا مُتعمَّدًا، بخلافِ الجنونِ، فإنَّه يشيرُ إلى فقدان العقل، وهذا التَّناقضُ يكشف عَنْ تخبُّطهم في فهمِهم الرِّسالةَ النَّبويَّة.

دلالةُ الكنايةِ في الآية:

هروبُهم مِن ظهورِ تناقضِهم

في قول اللّه تعالى حكاية عن الكفّار: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ كنايةٌ عن بطلانِ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ، وقد آثر أهلُ الكُفر الكنايةَ على التَّصريح؛ لأنَّ في التَّصريح تناقضًا بين تكذيبِهم القرآنَ ووصفهم النَّبيَّ ﷺ بالصّادق الأمين، ولكنَّهم وجَّهوا سهامَ الكذبِ والجنون للنَّبيِّ ﷺ؛ ليستلزم ذلك الطَّعنَ في كُلِّ ما يأتي به ووصفهم إيّاه بالكذبِ والافتراء[2].

بلاغةُ الاحتباكِ وسِرُّ ذكر الاحتمالين:

رفعُ الاحتمالِ الثّالث بَيْنَ الأمرين

في قول اللّه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، جعَلَ المُشركون حال الرَّسول ﷺ دائرًا بين الكذب والجنون بناءً على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194، وابن عادل، اللُّباب: 16/ 18.
(2) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 57.

أنَّه إن كان ما قالَهُ مِنَ البعثِ؛ قاله عن عمدٍ وسلامةِ عقلٍ، فهوَ في زعمِهم مفترٍ؛ لأنَّهم يزعمون أنَّ ذلك لا يُطابق الواقع؛ إذ ذلك مُحالٌ في نظرِهم القاصر، وإنْ كان قاله بلسانهِ لإملاء عقلٍ مُختلٍّ؛ فهو مجنون، وكلام المجنون لا يوصف بالافتراء، وإنَّما ردَّدوا حاله بين الأمرَيْن بناءً على أنَّه أخبر عن تلقّي وحيٍ من اللّٰهِ، فلم يبقَ احتمالٌ لقسم ثالثٍ، وهو أن يكون مُتوهِّمًا أو مخطئًا، كما لا يخفى[1]، فالآيةُ مِنَ الاحتباك؛ إذ ذِكْرُ الافتراءِ أوَّلًا يدلُّ على ضِدِّهِ ثانيًا، وذِكْرُ الجنون ثانيًا يَدُلُّ على ذكرِ ضدِّهِ أوَّلًا[2]، وهذا الاحتباكُ يُسَمّى الاحتباكَ الضِّدّيَّ؛ لأنَّه يقع بين ألفاظٍ، العلاقةُ بينها قائمةٌ على التَّضاد، فحُذِف مِنَ الأوَّل ما دلَّ عليه إثباتُ الثّاني، وهو الجنونُ وعكسُه العقل، وحُذِفَ من الثّاني ما دلَّ عليه مِن إثباتهِ في الأوَّل، وهو الافتراءُ، الذي يدلُّ على تعمُّدِ الكذبِ، وعكسُهُ الكذب بغير قَصْدٍ وعَمْدٍ[3].

عِلَّةُ فَصْلِ قولهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾:

بيانُ عاقِبَةِ السّوءِ لِلمُشْرِكينَ

لمّا قال المشركون ما قالوهُ مِن زعمِهم الباطلَ ورميهم النَّبيَّ الكريم بالافتراء والجنونِ؛ كان تقديرُ الجوابِ ردًّا عليهم: (ليس به شيء من ذلك)، فعَطفَ النَّظم الكريمُ عليه - مُخبرًا عن بعضِ الذين كفروا بما يوجِبُ رَدْعَ الآخرينَ - قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يُجدِّدون الإيمانَ؛ لأنَّهم طُبِعوا على الكُفْرِ[4]، والفصلُ بين الجملتينِ؛ لما بينهما من كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً؛ إذ جملة: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ إنشائيَّةٌ، وجملة: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ خبريَّةٌ، وفي هذا الفصلِ توضيحٌ لحالِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150 - 151.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 57.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.

هؤلاء المكذِّبين بأنَّهم هُم مَن يعيشُ في الضَّلال، وليس النَّبيَّ ﷺ، مِمّا يجعَلُ المُشركين في موضع الإدانة، ويُبرز أنَّ عاقبتَهم العذابُ.

معنى ﴿بَلِ﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

النِّداءُ على الكفّار باختلالِ العقلِ والانحراف في الفهم والإدراكِ

جاء هذا الرَّدُّ الإلهيُّ العظيم مُصدَّرًا بحرف الإضراب ﴿بَلِ﴾؛ وذلك بإثبات ما هو أفظعُ من القِسمَيْن بالنِّسبة لهم، وهو الضَّلال البعيدُ عن الصَّواب، بحيث لا يُرجى الخلاصُ منه وما هو مُؤدّاه مِنَ العذاب، وقد عطف الجواب بـ ﴿بَلِ﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على مقولةِ المشركين في صدر الآيةِ، وذلك لأنَّهم ردَّدوا حالَ النَّبيِّ ﷺ، فزعموا بهتانًا بأنَّه كاذبٌ أو مجنون، وأخرجوا ذلك في صورة الاستفهام، فجاء الجوابُ مِنَ الله تعالى بالإضراب عن كِلا الاحتمالَين، وإبطالِهما، وإثبات قسم ثالثٍ كاشف عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالِهم بما قالوا في حقِّ نبيِّه ﷺ، كأنَّه قيل: ليس الأمر كما زعموا، بل هم في كمال اختلالِ العقل وغاية الضَّلال عن الفهم والإدراك[1].

دلالةُ القصرِ في الآيةِ:

إثباتُ الضَّلال لَهُم

نفى اللهُ تعالى الكذبَ والجنونَ عن نبيِّه ﷺ، وأثبته لهم؛ إذ جملة: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ مُقابلة لجملة: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، وبذلك يتمثَّل القصرُ بـ ﴿بَلِ﴾ في قصر الاتِّهامات التي رموها جُزافًا على أنفسِهم من قبيل قصرِ الصِّفة على الموصوف[2].

فردَّ اللهُ عليهم استدلالَهم بما أشار إلى أنَّهم ضالّون أو مُضلِّون، فأبطل قولَهم بحذافيرِه بما يدلُّ عليه حرفُ الإضراب، ثُمَّ بجُملة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 123، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 360.
(2) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 281، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 58.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151.

عِلَّةُ الإظهارِ دون الإضمار:

التَّنبيهُ إلى أنَّ عِلَّة ما ارتكبوه مِنَ الجرائمِ هو كُفرهم بالآخرة

في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عُدولٌ عن الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظمِ القرآنيِّ: (بل هم في العذابِ)، إلى إبرازِهم بالموصول؛ وذلكَ للتَّنبيه بما في حَيِّز الصِّلة، مع إرادةِ التَّوبيخِ والإيماء إلى سببِ الحُكْم، وأنَّ عِلَّة ما ارتكبوه، واجترَؤوا عليه من الشَّناعةِ الفظيعَةِ هو كُفرُهم بالآخرة وما فيها من فُنون العقاب، ولولا ذلك؛ ما فعلوا ذلك خوفًا من غائِلَتِه[1].

دلالةُ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الإشـــارةُ إلى عنادِهِم الرّاسخ

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ نافيةٌ، والمعنى: لا يوجدون الإيمان؛ لأنَّهم طُبعوا على الكفر بالآخِرَةِ[2]، وهذا النَّفي يتضمَّنُ إدانةً لأهل الكفر، فَهيَ لا تُشير إلى غياب الإيمان فحسبُ، بل إلى عنادٍ مُترسِّخٍ يجعلهم يستحقّون ما توعَّدهم اللّهُ به من عذابٍ عظيمٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمانِ:

الـدَّلالـةُ على الـتَّـصـديـقِ الجازمِ الدّاعي إلى العمل

في قولهِ تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يكفي مُجرَّد الإقرار أو الاعتراف بالآخرة، بل لا بُدَّ من تصديقها تصديقًا نابعًا مِنَ القلب، ويكون هذا التَّصديقُ مستلزمًا للإذعانِ والعمل بما يقتضيه ذلك، وإذا فُقِدَ ذلك كُلُّهُ؛ أورثَ العذابَ والضَّلال.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الإيمان بالفعل المُضارِعِ:

عـدمُ إيمانِهم حـالٌ مُستمرَّة ومُتجدِّدة

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لا يجدِّدون الإيمانَ؛ لأنَّهم طُبعوا على الكُفر، فهُم الذين ضلّوا عن الفهمِ وإدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة، ولم يؤمنوا بما جاءَهُم به، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدّائم في الآخرةِ، وهم اليوم في الضَّلال البعيدِ عَنِ الحقِّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 123، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 285، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 263.

(2) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 350، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 203.

غايةَ البعدِ[1]، فَصياغَةُ لفظِ الإيمانِ بصيغة الفعلِ المُضارع توحي بأنَّ عدمَ إيمانِهم حالٌ مُستمرَّة ومُتجدِّدة، وليست أمرًا عارضًا، وهذا يُبرزُ أنَّ الكُفر والإعراض عن الإيمان بالآخرة يتكرَّر في أزمنتهم المُختلفة، ويُصرّون عليهِ؛ كُلَّما تَجَدَّد داعيهِ.

معنى (الباء) في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

قطعُ الصِّلةِ بين الكفّارِ وبين الآخرةِ إيمانًا وإقرارًا

علَّقَ النَّظمُ الكريم الإيمانَ بالآخرة؛ لأنَّها غايةُ المُؤمن الَّتي من أجلها يعمل؛ إذ فيها الجزاءُ على الأعمال، ولقاء الله ﷻ، فتكون حياتُهُ الأولى هادفةً وسعيُه فيها حثيثًا؛ لتحصيل السَّعادة الأبديَّة والعيشة الرَّضيَّة، بخلاف الذين لا يؤمنون بها؛ فهُم يتخبَّطون في حياتهم، لا يَحْدوهُم هدَفٌ، ولا تُحفِّزهم غاية.

والباء في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، على ما هو الأصلُ فيها، فيكون في الآية نفيُ الصِّلةِ بينهم وبين الآخرة إيمانًا بها وإقرارًا وإذعانًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الآخرة)، و(الساعة):

لفظُ (الآخرة) أكثرُ شمولًا لأحداثها

التَّعبيرُ بـ (الآخرة) أكثرُ شمولًا ودلالةً من (القيامة) أو (السّاعة)؛ إذ يدلُّ على الحياةِ بعد الموت على امتدادها، بما في ذلك عذابُ القبرِ ونعيمه والحساب والجنَّة والنّار[2]، بخلاف (القيامة) و(السّاعة)؛ فإنَّهما يدلّانِ في الأصلِ على مُدَّةٍ معيَّنةٍ منَ أحداث اليوم الآخرِ، كقيام النّاس من القبورِ وبدء الحساب، ولا ينفي ذلك أن يُطلَقَ هذان اللَّفظان على عمومِ الأحداث.

واختار النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالآخرة؛ ليفتح البابَ لمعنًى أوسع يشمل الجزاءَ الكامل، وفيه أنَّ عدمَ إيمانِهم بالآخرة لا يَنْحَصِرُ في تكذيبِ حدثٍ من أحداث الآخرةِ، بل في إنكار أصلِ الجزاء الأخرويِّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452، والقنوجي، فتح البيان: 5/ 422.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 2/ 265، والعثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 73.

وما يتعلَّق به سواءٌ تقدَّم أو تأخَّر، وهذا يُناسب سياقَ التَّهديد بالعذابِ واستحقاق الضَّلال.

كما أنَّ التَّعبيرَ بلفظ (الآخرة) يَرِدُ مُقابلةً للدُّنيا في القرآن الكريم، فكان التَّعبيرُ بها مشيرًا إلى الحياة الأبديَّة التي تَعقُب الحياة الفانية، ولذا كان نفيُ الإيمان بالآخرة دالًّا على الانغماسِ في الدُّنيا ونُكران الحياة الأبديَّة.

معنى حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ وقوعِ العذاب المُعَدِّ لهؤلاء الضُّلّال

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، والظَّرفيَّة هنا بمعنى الإعدادِ لَهُم، فحصل في حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ مَجازٌ في استعمال الموضوع للواقع فيما ليس بواقع؛ تنبيهًا على تحقيق وقوعه[1]، فاستعمالُ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ هنا لا يدلُّ على وُقوعِهم في العذاب بالفعل وقتَ نزولِ الآية، بل يَدلُّ على أنَّ العذابَ مُعدٌّ لهم، كأنَّه واقعٌ بهم لا محالةَ؛ تنبيهًا على تحقُّقِ وقوع العذاب على هؤلاءِ؛ لأنَّ الضَّلالَ هو سَبب العذاب؛ إذِ العذابُ لمّا كان من لوازم الضَّلالِ؛ جُعِلا كأنَّهما مقترنان[2].

وفي اختيارِ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ جعلَ العذابَ والضَّلال مُحيطين بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف؛ لأنَّ أسبابَ العذابِ معهم، فكأنَّهم في وسطِهِ[3]، فكان حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ دالًّا على تمكُّن العذابِ منهم، والمُبالغة في معنى ضَياعِهم وتخبُّطهم في الضَّلال.

ويجوز أن يكون لفظُ العذابِ دالًّا على حصول الاضطراب والقلق الدُّنيويِّ، فيكون المجاز مُرسلًا بعلاقة السَّببية؛ إذ منكرو الآخرةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 54.
(3) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 7/ 263، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 226.

في العذابِ المُترتِّب على إنكارهم؛ لتحَقُّق الرِّجس فيهم، والكفّار في بُعدهم عن الله تعالى في قلَقٍ نفسيٍّ، واضطراب وعدم استقرار، فهُم في عذاب دنيويٍّ[1].

دلالةُ تقديمِ العذاب على الضَّلال، وسِرُّ العطف:

العذابُ رادعٌ عنِ الضَّلال، وفي تقديمِه تعجيلٌ لمَساءَتِهم

لمّا كان قولُ المشركين وزعمُهم مُسبَّبًا عن ضَلالهم، وكان ضلالهم سببًا لعذابهم؛ قَدَّم العذاب لأنَّه المحطُّ، وليكون ذلك أشدَّ ردعًا لمَن أراد اللهُ إيمانَه، وفي تقديم العذابِ على ما يوجِبُه، ويُؤَدّي إليه - وهو الضَّلال - مُسارعةٌ إلى بيانِ ما يسوؤُهُم[2]، فقال: ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾، أي: في الدُّنيا بمحاولة إبطال ما أراد الله إتمامه، وفي الآخرة لِما فيه من المعصية، فأتبَعَ العذابَ بذِكْرِ سَبَبِه[3].

ولمّا كان الضَّلال يؤدّي ضَرورَةً إلى العذاب؛ كانا كأنَّهما مترابطان لا يَنْفَصِلان بحالٍ، وجعله قرينًا له، كأنَّهما حاصلانِ في وقتٍ واحدٍ، والواوُ وإنْ لم يَدُلَّ على القِران في الوقوع، إلّا أنَّ القِرانَ في الذِّكر رُبَّما أشعرَ بالقِران في الوقوع، فمدلولُ الكلام: أنَّهم الآن في العذابِ كما أنَّهم الآن في الضَّلال، لكنَّ الثّانيَ على الحقيقة، والأوَّلَ على وجه المُبالغة والمجاز[4].

بلاغةُ المجاز العقليّ في إسناد البُعد إلى الضَّلال:

المبالغةُ في وصف الانحرافِ الكبير عن الحقِّ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الذي يوصف بالبُعْدِ الإنسانُ الضّالُّ، فالبُعد صفةُ الضّالِّ؛ إذا بَعُدَ عن الجادَّة، وكلَّما ازداد عنها بُعدًا؛ كان أكثر ضلالًا[5]، فجيءَ بالمعنى المجازيِّ هنا للمُلابسةِ بينهما؛ إذِ الفاعل يُلابس المصدرَ، ثُمَّ شُبِّه البُعد عن

(1) الزِّين، بيان النَّظم: 3/ 375، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 22/ 4373.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 263.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.
(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 242، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 456.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 570، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 242.

الحقِّ بالبُعدِ عن الجادَّة، فأُطْلِقَ عليه الضَّلال على جهةِ الاستعارة، ثُمَّ شاع فيه، فصارت حقيقةً عُرفيَّةً فيه، فاعتُبِر في هذا المعنى أيضًا كون البُعد صِفَةً للضَّلال عن الجادَّة المعنويَّة حقيقةً، وإسناده إلى الضَّلال مَجازًا[1]، والمَجازُ هُنا يُرادُ به المُبالغة التي توحي بتَباعُدِ الضّالِّ عن الحقِّ والجادَّة المستقيمة، وذلك يقتضي شدَّةَ الانغماسِ في الباطل والانحرافِ الكبيرِ عَنِ الصَّوابِ[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالبُعدِ في وصف الضَّلال بالبعيد:

الضَّلالُ البعيدُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ هوَ الضَّلال الذي يعسُرُ الرُّجوعُ منه إلى الهُدى؛ تشبيهًا بِمَن ضَلَّ عن محجَّة الطَّريق بُعْدًا مُتناهيًا فلا يكاد يُرجى له العودُ إليها[3]، ولمّا كان الضَّلالُ يَبْعُد ببُعْدِ صاحبه عن الجادَّة وتوَغُّله في المهامِهِ الوعرة الشّاسعة؛ قال واصفًا له بوصف الضّالِّ: ﴿ٱلۡبَعِيدِ﴾، فبيَّن الوصفُ أنَّه لا يمكِنُ الانفكاكُ عنه[4]؛ لأنَّ مَن يُسمّي المهتديَ ضالًّا يكون هو الضّالَّ، ومَن يُسَمّي الهاديَ ضالًّا يكون أضلَّ، والنَّبيُّ ﷺ هادٍ لِكُلِّ مُهتَدٍ هدايةَ إرشادٍ ودلالةٍ[5]، فالضّالُّ كلَّما توغَّل في الطَّريق الخطأ؛ ازداد بُعدًا عن المقصودِ، فاشتدَّ ضلالُهُ، وعَسُر خلاصُه، وهذا ترشيحٌ للإسنادِ المجازيِّ[6].

الضَّلالُ البعيدُ تـوغُّـلٌ في الانحراف تعسُرُ معهُ العودة إلى الحقِّ

دلالةُ ذِكْرِ السَّببِ بعد المُسَبَّب:

البدءُ بالعذاب - وهو النَّتيجةُ النِّهائيَّةُ - تدلُّ على خطورة الضَّلالِ؛ ولذا جاء ذِكْرُ ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ هنا تفسيرًا لهذا المصير، مِمّا يُسْهِمُ في توضيح الصِّلةِ بين الفعل والجزاء، فذِكْرُ

توضيحُ الصِّلةِ بَـيْنَ الـفـعـلِ ومآلِهِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 457.
(2) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 7/ 263.
(3) الرّاغب، المُفردات: (بعد).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 453.
(5) الجاوي، مراح لبيد: 2/ 265، والشِّربيني، السراج المنير: 3/ 350.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151 - 152.

المُسَبَّب ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ أوَّلًا يَجْعَلُ السّامع يتساءل عن السَّبب، مِمّا يُعزِّز أثَر ذِكْرِ ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ لاحقًا؛ لكونِه السَّببَ المُباشرَ لهذا العذاب، فذِكْرُ الضَّلال بعد العذابِ هو من ذِكْرِ السَّببِ بعد المسبَّب، أي: إنَّ عذابَهم في الآخرة مسبَّبٌ عن ضلالهم في الدُّنيا، وأُخِّر ذكرُ المسبَّب عن السَّبب وإن كان السَّبب مُتقدِّمًا؛ تعجيلًا للمساءَةِ، ومُراعاةً للفاصلة[1].

بلاغةُ الإدماج في الآية:

إبـــرازُ الـصِّـلـة الـوثـيـقـةِ بين الـعـقـيـدةِ الفاسدةِ والمصير المحتومِ

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ قابلَ اللّه تعالى في قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ ما وصفوا به الرَّسولَ ﷺ بوصفَين، أنَّهم في العذاب، وذلك مُقابلُ قولِهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ الذي يَكذِبُ على اللّه تعالى يُسلِّط اللّهُ سبحانَهُ عليه عذابَه، وأنَّهم في الضَّلال البعيد، وذلك مُقابلٌ لِقولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، وهذا إدماجٌ يَصِفُ به حالَهُم في الآخرة مع وصف حالِهم في الدُّنيا، ويقصِدُ الإدماجُ في هذه الآيةِ إلى تحذير المشركين من مغبَّة الانسياقِ وراءَ ضلالاتهم في الدُّنيا التي سَتوقِعُهم في العذاب يوم القيامة[2]، فتتجلَّى في هذه الآية بلاغةُ الإدماج من خلال الرَّبط المتين بين الكفرِ بالآخرةِ والعذاب، وذلك دالٌّ على التَّرابط الحتميِّ بين العقيدة الفاسدةِ والمصير المحتوم، مِمّا يُضيف عُمقًا بلاغيًّا وقوَّةَ تأثيرٍ في نفس السّامع، فالتَّعبيرُ لا ينفرِدُ فقط بذكر عقيدتهم الفاسدةِ، بل بذكْرِ نتيجَتِها، وهي العذابُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكذب والافتراء والبهتان:

الافتراءُ والبهتانُ كـلاهـمـا أخـصُّ من الكذبِ

الكَذِبُ: هو عدَمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقِعِ، وهذا هو القول الصَّحيحُ المختار، أو أنَّه عدمُ مطابقة الخبرِ لاعتقادِ المُخبِرِ لهُ، على خلافٍ

(1) الباليساني، حسن البيان، ص: 1961.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.

معروفٍ في ذلك، والافتراءُ: أخَصُّ منه؛ لأنَّه الكَذِبُ في حَقِّ غيرِكَ بما لا يرتضيهِ، بخِلافِ الكَذِبِ فإنَّه قد يكونُ في حَقِّ المتكَلِّمِ نفسِهِ؛ ولذا يقالُ لمن قال: فعلتُ كذا، ولَم أفعَلْ كذا، مع عدَمِ صِدقِهِ في ذلك: هو كاذِبٌ، ولا يقالُ: هو مُفتَرٍ، وكذا مَن مدَح أحدًا بما ليس فيه، يقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وصفِه، ولا يقالُ: هو مُفتَرٍ؛ لأنَّ في ذلك ما يرتضيه المقولُ فيه غالبًا، ومنه ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى من قول الكفّار: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لزعمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللهُ سُبحانَه مع نِسبتِه إليه.

وأيضًا قد يحسُنُ الكَذِبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وعِدَّةِ الزَّوجةِ، بخلافِ الافتراءِ فلا يحسُنُ بحالٍ.

وأمّا البُهتانُ؛ فهو الكَذِبُ الذي يواجهُ به صاحِبُه على وجهِ المكابَرةِ له بما لم يُحِبَّه[1].

الضَّلال والغواية:

الضَّلال فقدانُ الطَّريق الموصل، والغوايَةُ العُدول عن الطَّريق القويم قصدًا

الضَّلال: فقدانُ ما يوصِلُ إلى المطلوب، وذكروا في تعريفِهِ أنَّهُ سلوكُ طريقٍ لا يوصَل إلى المطلوب[2]، وكلُّ عدول عَن النَّهج عمدًا أَو سَهوًا قَليلًا كانَ أَو كثيرًا[3]، فَهوَ ضلالٌ، وفي باب الحقِّ والباطل يكون الضَّلالُ عدولًا عن الطَّريق المستقيم[4]، وقد يكون عن قصدٍ أو عن غير قَصْدٍ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وقال الله سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمّا الغوايةُ؛ فهي جَهْلٌ عَن اعتقادٍ فاسد[5]، فلا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّريق المُستَقيم[6]، فالغواية

(1) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 47، والكفوي، الكلّيّات، ص: 154.
(2) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(4) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.
(5) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (غوى).
(6) الكفويُّ، الكليات، ص: 576.

إمعانٌ في الضَّلال، بخلاف الضَّلال؛ فهو عامٌّ[1]؛ إذِ الضَّلالُ يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدّابَّةُ، ولا يُقال: غوتِ الدابَّة، بخلافِ الغواية فهي للعاقل المُكلَّف.

والضَّلال: نقيضُ الهُدى، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]، والغوايَةُ: نقيضُ الرُّشْد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

وقد اجتمعَ ذِكرُ الضَّلال والغواية في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادةُ للرَّسول ﷺ بأنَّه راشدٌ تابع للحقِّ لَيْسَ بضالٍّ، والضّالُّ: هو الجاهلُ الَّذي يسلكُ طريقًا بغير علم، والغاوي هو العالم بالحقِّ، العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره، فنـزَّه اللّهُ رسولَهُ ﷺ وشرعَهُ عن مشابهة أهل الضَّلال كالنَّصارى، وطرائق غواية اليهود، وهي عِلْمُ الشَّيءِ وكِتمانهُ والعملُ بخلافه، بل هو صلاةُ الله وسلامُهُ عليه وما بعثه اللّهُ به مِنَ الشَّرع العظيم في غاية الاستقامةِ والاعتدال والسَّداد، فأثنى عليه بكمال العِلْمِ والعمل[2].

والحاصلُ أنَّ الضَّلال أعمُّ؛ وهو ألّا يَجِدَ السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ: ألّا يكونَ له إلى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيم[3].

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 411.
(3) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199، والتَّهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 2/ 1119.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»